٤ ـ الأمير خسرو

الشاعر الهندى الكبير

للسيد أبى النصر أحمد الحسينى الهندى

تتمـــــة

إن الشعر الراقى يشمل طموحاً غامضاً ماثلاً إلى اللانهائى ؛ ومع هذا يتخذ لذلك من هذا العالم المادى وسيلة ، فهو يعطى صوتاً لصمت الغرائب التى تبرزها أسرار هذا العالم . وبناء عليه يكون بيت واحد من ذلك الشعر يحتوى على قيادة روحانية وفكرة سامية مؤثرة فى النفس إلى قرار سحيق ، وهو مالا تجده فى صفحات من النثر ، وذلك لأن من لوازم النبوغ الشعرى الراقى بصيرة نافذة من ظواهر الأشياء إلى صميمها . فبها يجمع الشاعر الفيلسوف المفلق الكامل حقيقة الأشياء الأصلية فى مجموع كامل جديد مؤثر غاية الأثر ، وبها يدرك ويرى من مطالع الحق والجمال فى هذا العالم مالا يراه العامى . فاذا عبر عما يدركه ويراه برموز واصطلاحات مادية فهو لاينوبها بالذات ، بل ينوى بها تلك الحقيقة العليا الخالدة التى طالما طمحت اليها روحه ونفسه كلما أدرك مظاهر تلك الحقيقة المتنوعة ومناظرها المختلفة فى هذا العالم . وهذا الصنف من الشعر هو شعر فلسفى روحانى . ولقريحة خسرو فى هذه الناحية انتاج واسع لأنه كان صوفياً كبيراً . نذكر الأبيات الآتية منه قال :

جان زتن بردى ردرجانى هنوز — دردها دادى ودرمانى هنوز
آشكارا سينه أم بشكا فتى — همجنان در سينه پنهانى هنوز
ملك دل كردى خراب از تيغ ناز — واندرين ويرانه سلطانى هنوز
هردو عالم قيمت خود كفته — نرخ بالا كن كه ارزانى هنوز

« أخذت روحى من جسمى ولازلت أنت فى روحى ، وأعطيتنى الآلام ولازلت أنت الشفاء »

« شققت صدرى على الاعلان ، ولازلت أنت مخفياً فيه كما كنت »

« خربت أقليم القلب بسيف الدلال ، ولازلت أنت السلطان فى هذا الخراب »

« قلت ثمن نفسك العالمان . ارفع الثمن فانك لاتزال رخيصاً »

لم يكن خسرو نابغة فى الشعر فقط ، بل كان أيضاً موسيقياً بارعاً ، فقد برع فى الموسيقى إلى أن نال لقب « نايك » وهو لقب قل أن ناله أحد غيره فيما بعد من المسلمين . فقد نقل عنه المؤرخ دولت شاه فى كتابه « تذكرة الشعراء » بيتين قال فيهما :

« أنا سيد الموسيقى كما أنا سيد الشعر . أنا كتبت ثلاثة مجلدات فى الشعر[1]

لو كان ممكناً تحويل جميع ما ألفته من الألحان الموسيقية الى الكتابة لبلغ الى ثلاثة مجلدات أيضاً »

وحقاً قال أمير خسرو لأنه كان صاحب ذكاء حاد فوق المعتاد ، يملك ملكة اختراعية فى الشعر وفى الموسيقى فبلغ فيهما ما لم يبلغه أحد . واختراعاته وتآليفه فى الألحان والنغمات لاتزال رائجة وشائعة بين الهنود إلى اليوم ، وهو الذى اخترع « سيتار » الآلة الموسيقية التى تشبه تقريباً القيثارة العربية والتى لاتزال تهز الأفئدة بنغماتها الشجية فى محافل الهند وأفراحها الى اليوم طالبة الشهادة على كمال عبقرية مخترعها

قد ذكر صاحب « مانك سهال » (وهو كتاب فى تاريخ الموسيقى صنفه فى عهد الامبراطور محيى الدين أورنك زيب عالمكير وقد ترجم إلى الفارسية باسم « راكى درپن ») كثيرا من النغم والألحان التى اخترعها أمير خسرو ، وذكر حكاية تدل على براعة خسرو فى الموسيقى وهى أن السلطان علاء الدين خلجى دعا مرة « نايك جوبال » الموسيقى الوثنى الشهير حينئذ للاطلاع على كماله فى الفن ، وكان له ألف وستمائة تلميذ إذا أراد الخروج من بيته حملوه على أكتافهم فلبى دعوة السلطان وأسمعه الألحان والنغمات ستة أيام متوالية ، وكان خسرو يسمعها مختفيا . وفى اليوم السابع تصدى له خسرو وادعى أن جميع الألحان والنغم التى سمعها السلطان هو مخترعها وأعادها واحدة واحدة باتقان وإجادة أكثر من جوبال فتحير الرجل فى كمال خسرو وبراعته فى الفن

(١) لعله قال هذين البيتين حين بلغ جميع ماصنفه فى الشعر ثلاثة مجلدات لأن له عشرات من المجلدات فى الشعر . ونحن قد ذكرنا فى مقالنا الثانى ما يوجد منها الآن فى الهند وهو أكثر من ثلاثة . وأيضاً يستدل من قوله هذا أن كتابة الألحان الموسيقية بالرموز كما تكتب الآن لم تكن معلومة حينئذ

كانت براعة خسرو فى الموسيقى أحرزت له شهرة واسعة لدى عامة الناس أيضاً وعلى الأخص السيدات والأولاد منهم ، إذ كانوا يحفظون نغماته وألحانه وأناشيده ، ويغنونها فى أفراحهم ومحافلهم ولم يكن يكتب نشيداً إلا كان يخترع له لحناً خاصا . وقد اخترع أصنافا كثيرة من الألحان والأناشيد التى لم يكن لها وجود قبله ، وعلى الأخص باللغة الأردية أذكر منها « أنميل » « مكرنى » و « دوسخنة » و « دهكوسلا » الخ وكلها شائعة بين العامة الى اليوم

كان خسرو يرتجل الشعر والأناشيد بداهة . ومن حكايات ارتجاله أنه عطش مرة فذهب الى بئر كان أربع سيدات يخرجن منها الماء فاستسقاهن . فعرفته واحدة منهن وقالت للأخريات : إن هذا خسرو : فسألته : هل أنت خسرو الذى يغني كل واحد أناشيده وألحانه ويسمع ألغازه وأنميله ومكرنيه ؟ فأجاب نعم . فقالت واحدة منهن : اعمل لنا نشيداً واستعمل فيه كلمة « كهير » (أى الهلبية) وقالت الثانية : استعمل فيه كلمة « شرخا » (أى المغزل) أيضا ، وقالت الثالثة : كلمة « دهول » (أى الطبلة) أيضا ، وقالت الرابعة : كلمة « كُتّا » (أى الكلب) أيضا فقال لهن : اعطينى الماء أولاً فانى أموت عطشا ، فقلن له : لا نعطيك الماء حتى تقول النشيد المشتمل على كلماتنا : فارتجله خسرو ؛ وهذه ترجمته ولكن لم يبق فيها جماله الأصلى :

إن الهلبية طبخت بالاعتناء
واستعمل فيها خشب المغزل وقودا
ثم جاء الكلب وأكلها
وشغلكم ضرب الطبلة
وأنا عطشان ، اعطينى الماء

كان الأمير خسرو صوفياً كبيراً وَرِعاً صالحا تقيا . قال المؤرخ (ضياء الدين برنى) وهو من أصدقائه فى كتابه تاريخ فيروز شاهى : « إنه مع حصافته العقلية ، وذكائه الشاذ ، وعلمه الواسع كان صوفيا من الطبقة الأولى ، فكان يصوم تقريباً كل يوم ويصرف أكثر أوقاته فى تلاوة القرآن وفى اقامة النوافل والفرائض من الصلاة ، وكان خليفة فى الطريقة لسيدنا الشيخ الولى الصوفى مولانا « نظام الدين أولياء » قدس الله سره ، وإنى لم أر خليفة يعتقد اعتقاداً قوياً فى شيخه مثله »

إن من أهم مبادئ الصوفية التحرز التام من جرح عواطف الناس ، وقتل أمانيهم وبذل أقصى المجهود فى قضاء حاجاتهم . وكان الشيخ نظام الدين قدس الله سره يقول : إنه لا عمل يساوى يوم القيامة إدخال السرور على قلوب الناس ، وفى حديث عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : الخلق كلهم عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من أحسن الى عياله . فكان خسرو من أكبر العاملين بهذا الحديث ، لذلك كان محبوبا عند الجميع . وله فى ذلك حكايات كثيرة منها : أنه عند ما كان يرجع من السراى الملكية كل يوم الى البيت يرجع راجلا ، لأنه كان يحب البساطة والسذاجة فى العيش ، وهو أيضا من لوازم الحياة الصوفية ، فيمر بدكان عجوز تسمى شمّو فتقدم له كرسيا وزجيلة ، وتطلب منه تشريفها ولو بدقيقة . فلكى لا يجرح عواطفها كان يقعد عندها ولو دقيقة . ومرة قالت له : ياسيدى خسرو ! آلامك وبلاؤك على رأسى إنك تقول آلافا من الغزل وتؤلف النغمات والألحان وتصنف الكتب . أما تؤلف شيئاً باسمى حتى يذكر اسمى أيضاً بفضلك ؟ فقال لها حاضر ياسيدتى شمّو وارتجل نشيدا فيه اسمها . فخلد اسمها بذلك النشيد الى اليوم

كان خسرو لين الجانب رقيق العواطف قطع جميع مدارج التصوف ومنازله ، فكان صاحب حرقة قلبية دائمة فى حب الله . وقد قال فيه شيخه مولانا نظام الدين أولياء قدس سره : « فى يوم القيامة كل واحد يفتخر بشىء ، وتخرى بحرقة هذا (ترك الله) » . ولعل خسرو أشار إلى هذا حين قال البيت الآتى :

خسرو من كوش براى صواب
تاتو شود « ترك خداى » خطاب

« ياخسرو اجتهد فى الحق ليكون لك لقب « ترك الله »

انتهى البحث السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

ملحوظة : سقطت جملة من مقالة « الأمير خسرو » فى ص ٤٦٣ السطر الرابع من العمود الأول . والصحيح كما يلى : فكان يتقن التركية لأنه كان من أصل تركى ، والعربية لأنها كانت لغة دينه ، والفارسية لأنها كانت لغة الحكومة الرسمية حينئذ . كذلك حصل خطأ فى جملة وردت فى ص ٥٠٨ فى السطر الثامن من العمود الثانى وصوابها : ان الشعر هو مآله أثر أخلاقى . . . .